الآداب
ربع قرن من الالتزام

سلمى الخضراء الجيوسي

ان أهمية أية مجلة ادبية لا تنحصر فقط في نوع المادة التي تنشرها ، بل في فعالية الدور الذي تلعبه في تطوير الادب والفكر في زمنها .

في تاريخ الادب العربي الحديث عدد محدود من المجلات الادبية لعبت دورا تاريخيا في تغيير أوضاع الادب في الفترة التي عاصرتها . من هذه المجلات كانت «أبولو» ، فهي ، بعد اكثر من اربعين سنة من انقطاعها ، لم تزل موضع الدراسة والاهتمام بينما نسي الناس عشرات المجلات الاخرى التي ظهرت على المسرح ثم اختفت . ومن هذه المجلات مجلة « شعر » التي ستحتفظ بأهميتها في تاريخ الشعر العربي الحديث لانها لعبت دورا غاية في الاهمية في الدفاع عن قضيته وفي تثبيت اسسه الفنية. ومن هذه المجلات أيضا « الآداب » .

عاشت « أبولو » من سنة ١٩٣٢ حتى سنة ١٩٣٤ ، وعاشت « شعر » من سنة ١٩٥٧ حتى سنة ١٩٦٤ ثم من سنة ١٩٦٧ حتى سنة ١٩٦٩ . أما « الآداب » فقد استمرت في الظهور .

يعود الفرق بين مصير هذه المجلات الثلاث الى عدة أسباب لعل اكثرها وضوحا هو ان « الآداب » لم تقتصر ، كما فعلت كل من « ابولو » و « شعر » على الشعر وقضاياه . غير ان أسبابا أخرى ، غاية في الاهمية ، تكمن وراء استمرارها .

لا أذكر « الآداب » الا وتمتد أمامي صور العالم العربي الواسع . هذا لا يعود فقط الى ان « الآداب » اقترنت بهذا الوطن وقضاياه منذ نشأتها ، وفتحت منبرها الحر الى أدبائه وشعرائه جميعهم ، بل لانها اقترنت بشخصيته أيضا ، وعكستها كما لم تعكسها مجلة ادبية أخرى في العالم العربي .

حاول ابو شادي يوم أنشأ « ابولو » أن يلونها بلون ثقافته الانكليزية . كان أبو شادي لا منتميا في مجتمعه ، ولم يكن لانتماؤه صادرا فقط عن رفضه الواعي للاوضاع الاجتماعية والاخلاقية والادبية في وطنه ، بل بحكم شخصيته أيضا وطبيعته النفسية التي لم تنسجم قط مع الروح العامة حوله ، فعاش غريبا ومات غريبا معذبا . كان عالم الادب في زمنه ، وفي مصر بالذات ، قاسيا عسيرا سيطر عليه عدد من الادباء اتسم بعضهم بالشراسة والغطرسة وبعضهم بالتحزب والتعصب . وقد اقتحم ابو شادي هذا العالم الصعب بروحه الحماسة المغامرة وبمفاهيمه الادبية الطريفة ، ليجد سريعا بأنه لم يكن كفؤا للذين تصدوا له من المضطلعين بالمناخ الفكري والمزاج العاطفي في وطنه ، فقضوا على مجلته الرائدة التي كانت اول مجلة اختصت بالشعر في تاريخ الادب العربي جميعه.

والسر في الامر هو ان « ابولو » عجزت عن استقطاب عدد كاف من القراء في زمنها يناصرونها ويمدونها بالمال

سلمى الخضراء الجيوسي

اللازم لاستمرارها . وهذا ما حدث لـ « شعر » أيضا . يحسب المرء ان فترة ربع قرن من الزمن بين المجلتين كانت كفيلة بخلق جيل من محبي الشعر وقرائه اكبر عددا وأكثر وعيا منه في الثلاثينات . ولكن تجربة «شعر» برهنت على ان النسبة كانت غير كافية لمساندة المجلة . وقد آذى « شعر » أيضا انها اقتصرت على المشكلات الفنية في فترة كانت تتفجر بحديث الثورة والالتزام وتصر على حيوية الدور الذي يلعبه الادب في المجتمع . فقد تجنبت « شعر » الامرين : تجنبت أولا الاشتراك في معركة الالتزام التي خاضتها « الآداب » بقوة وتمرس ، وتجنبت ثانيا دراسة الادب من وجهة النظر الاجتماعية ، فقد كان محررو المجلة وكتابها البارزون اكثر ميلا الى الدراسات الفنية والتقنية ، أي الى النظر الى العوامل الداخلية في الفن ، منهم الى دراسة الادب من خلال العوامل الخارجية من اجتماعية وسياسية واقتصادية . ولعل قدرة « شعر » على تجنب هاتين الطريقتين في النظر الى الادب كانت تنضوي على استقلال في المذهب الفني الذي التزمته . غير ان العصر لم يكن قادرا على الخروج من انهماكه بقضايا الحياة العربية الملحة . ولذا فان التزام « شعر » بالحديث عن أسس الشعر الفنية وقضاياه الجمالية والتقنية وتطورها (تطور هو نفسه من نتاج هذا العصر المتحرك) لم يستطع أن يشبع حاجة القراء الى الالتفات الدائم الى واقع الحياة العربية وانعكاسه في الشعر وتأثير الشعر عليه . وقد برهنوا على هذا في موقفهم من المجلتين . لعل سهيل ادريس رجل أعمال أقدر من يوسف الخال ، ولكننا يجب أن نذكر ان العصر كان في جانبه وان مجلته كانت دائما تعبيرا عن قضايا هذا العصر .

كانت « الآداب » بروحها وهدفها وانتمائها قادرة على أن تضمن لها جمهورا واسعا . فهي ، منذ نشأتها ، واكبت الاحداث القومية وعبرت بقوة عن المشاعر العربية العامة، فركبت رأس الموجة في الصراع الفكري والحضاري في العالم العربي ، وعرفت كيف تتبنى الروح الثورية المهيمنة على هذا العالم وتعلن عنها . في هذا كانت « الآداب » مدينة الى سياسة مديرها من جهة ، والى طبيعة الفترة الزمنية من جهة اخرى .

عندما صدرت « الآداب » في بيروت في مطلع سنة ١٩٥٣ كانت مجلة « الاديب » لصاحبها البير أديب هي المهيمنة على الحقل الادبي . غير ان « الآداب » استطاعت في أقل من سنتين أن تشق طريقها الى مركز الريادة في لبنان وفي العالم العربي . واستطاعت أن تصدر في مطلع سنة ١٩٥٥ عددا خاصا بالشعر الحديث لا يزال أهم ما كتب عنه .

وكانت بيروت نفسها قد بدأت تحتل مكان الصدارة الادبية في العالم العربي ، وهو مركز حافظت عليه حتى الحرب الاهلية الاخيرة . فقد كانت تتمتع يومئذ بحرية سياسية واجتماعية وثقافية لم تتمتع بها مدينة عربية اخرى في المرحلة . كانت منبرا للفكر السياسي وللاراء الادبية المختلفة ، ومنحتها الحرية القدرة على التنويع ، والحصانة من تحكم المذهبية والسلطوية على جوها — فغلب عليها ، يومئذ ، طابع التسامح وأصبحت مقصد الكتاب والشعراء في العالم العربي . وهذا بدوره شجع حركة النشر والتوزيع وأحدث نشاطا لا حد له في الحركة الادبية .

في مثل هذا الجو المتمتع بالحرية والتسامح الذي كان يتوق اليه الكاتب العربي في كل مكان استطاعت « الآداب » أن تشق طريقها الى محل الصدارة في أقصر وقت ممكن .

وكانت الفترة التي نشأت فيها « الآداب » ، فترة الخمسينات ، هي فترة التجديد الواسع المبدع في الشعر العربي ، وفي الادب أيضا . وتفاعلت المجلة الناشئة مع هذه الموجة الجديدة التي امتدت وانتشرت سريعا في العالم العربي من بغداد الى دمشق والقاهرة وبيروت ، وتبنت معركة التجديد ، مفسحة المجال لذلك النقاش التاريخي الجاد الذي تبع حركة الشعر الحر . ان

« الآداب » سجل وثائقي مهم لتطور المفهوم الشعري في مطلع الخمسينات وعلى صفحاتها وصل رواد حركة التجديد الشعري الى الشهرة والتمرس . حتى اذا جاءت « شعر » سنة ١٩٥٧ وجدت القائمة معدة ، تكاد تكون كاملة ، ولم تحتج الى أن تخوض المعركة التي نشبت اثر الصدمة العنيفة التي احدثها الشعر الحر في الحساسية الشعرية الموروثة ، فقد خاضتها « الآداب » ، ومهدت طريق التجديد ووجهت الحساسية الشعرية عند جيل الشبان في مطلع الخمسينات نحو تذوق الايقاعات الجديدة والتفاعل مع المحتوى الحديث . وبدأت « شعر » من هذه القاعدة الممهدة لتصل بفكرة التجديد الى مستوى العقيدة الفنية .

ومن أهم ميزات الدور الذي لعبته « الآداب » ، ولعله أهم أدوارها ، هو انها وقفت الى جانب الثقافة الحديثة ودعت الى المعرفة الواعية بالنقد والادب الغربيين ، ولكنها وقفت في الوقت نفسه بقوة الى جانب التراث العربي الروحي والادبي ، ودعت الى التمرس بالاصالة العربية في اللغة والروح . قدمت للقارىء سارتر وكامو وبوفوار واليوت ولوركا وكولن ويلسون وكثيرين من الادباء العالميين ، دون أن تسهم في تعميق الاحساس بالنقص تجاه الفكر الغربي . انها لم تمجد قط الابداع الغربي على حساب الابداع العربي ولم تسمح بالشك في الحضارة العربية وامكاناتها وقدرتها على الحياة . قلة من نقادنا الحديثين استطاعوا أن يتجنبوا تحميل القارىء عبئا لا ضرورة له من مركب النقص والاحساس بالعجز ازاء حضارة الغرب (من هذه القلة مارون عبود ، احسان عباس ، رجاء النقاش مثلا) . أن تاريخ النقد العربي الحديث تاريخ مرهق بعدد النقاد الذين قارنوا مقارنة مجحفة بين التراث الادبي العربي والادب الغربي الحديث فشذبوا الاول ومجدوا الثاني بلا حساب .

لا شك أن في حياتنا المعاصرة وأخلاقنا المعاصرة الكثير مما يجب رفضه والاصرار على تغييره . غير ان هؤلاء النقاد لم يدركوا ان البناء الصحيح لا تقوم به الا النفوس المعافاة التي تدرك حتمية الاوضاع المعاصرة وتعتبر نفسها وريثة الحضارة الانسانية جميعها ، في الشرق وفي الغرب . « الآداب » أدركت هذا . وكان اسلوبها واهتماماتها (انتقاؤها للمواضيع ، برنامجها ، استفتاءاتها ، مناقشاتها) تشير الى ثقتها بمستقبل الحياة العربية وبقدرة الانسان في العالم العربي على تجاوز حاضره وعلى الابداع . وكأن هذا من بواعث نجاحها واستمرارها .

ولقد كانت « الآداب » صوتا عربيا انطلق مؤكدا وحدة الحضارة والمصير ووحدة الحركة الادبية في العالم العربي . ومن يدرس هذه المجلة عبر السنوات يتأكد من تفاعل التيارات الادبية بعضها مع البعض الآخر في العالم العربي وانسجام الحركة الادبية فيه .

هل كانت رغبة « الآداب » في التعبير عن روح العصر وفي تنشيط الحركة الادبية المعاصرة هي السبب في عدم اهتمامها بدراسة الادب العربي الكلاسيكي ، بشكل خاص ؟ لا شك أن منهاجها العام كان مبنيا في الدرجة الاولى على الاهتمام بالاحداث الادبية المعاصرة وبما يحدث في الادب من تغيير وتجديد في المرحلة . غير ان سببا آخر قد يكمن وراء ذلك . فحتى مطلع السبعينات كان أغلب الذين هاجموا الادب الكلاسيكي والتراث يجهلونه ، وكان أغلب الذين دافعوا عنه تقليديين سلفيين لا ينفع هذا الادب دفاعهم . ولعل « الآداب » كانت تدرك هذا فتجنبته .

هذه بعض النقاط الايجابية التي تميزت بها « الآداب » . وبقي نقطة أخيرة أحب ان أذكرها ، وهي ان « الآداب » ليست مؤسسة عامة كالهلال والمقتطف ودوز اليوسف التي تلونت باللون المحلي العام بحيث تستطيع أن تغير محرريها وادارتها دون أن يحدث تغيير جذري في منهاجها او روحها . « الآداب » تختلف عن هذا ، فهي في روحها واسلوبها ذات علاقة صميمة مباشرة بشخصية صاحبها ، تستمد طاقتها مجددا في كل عدد من طاقة محرريها وتتلون بسياستهما ومفهومهما للادب والحياة . وان ما ينقذها من سيطرة الاسلوب الفردي عليها هو ان في موقف صاحبيها تجاوبا مستمرا مع روح العصر العامة وتطلعات جمهور القراء في العالم العربي .

سلمى الخضراء الجيوسي

من منشورات دار الآداب

● خليل مطران
« مختارات من شعره »
اختارها وقدم لها
احمد عبد المعطي حجازي

● بدر شاكر السياب
« مختارات من شعره »
اختارها وقدم لها ادونيس